قصة: غسان كنفاني

هذه القصة كانت ضمن مجموعة من المشاريع القصصية والروائية التي كان يعدها الرفيق غسان كنفاني قبل استشهاده ، والتي لم تكن قد نشرت بعد كما ان بعضها لم يستكمل .. وهي ستكون ضمن المؤلفات الكاملة التي ستنشر للرفيق غسان قريبا .

وبعد استشهاد الرفيق قامت لجنة بمراجعة هذه القصة ولم تستطع الجزم بانها قصة مكتملة ام انها غير مكتملة .. وقد جرى نشرها في عدد الشهر الحالي من مجلة ((شؤون فلسطينية))

وهي من حيث اسلوبها تعتمد طريقة جديدة في كتابة الرواية العربية ، اذ تعتمد على سياق متواصل من الهوامش التي تساعد على فهم الخلفيات التي تأتي عنها احداث القصة الاساسية وتصرفات اشخاصها .. وعلى هذا الاساس تأتي واحدة من محاولات الرفيق غسان الكثيرة لاقتحام عوالم جديدة في الرواية العربية .

« الهدف »

برقوق نيسان

عندما جاء نيسان اخذت الارض تتفرج بزهر البرقوق الاحمر وكانها بدن رجل شاسع ، مثقب بالرصاص . كان الحزن ، وكان الفرح المختبىء فيه مثلما تكون الولادة ويكون الالم ، هكذا مات قاسم(١) قبل سنة ، وقد دفن حيث لا يعرف احد ، دون اسم(٢) ، ويبدو الآن بعيدا كانه لم يكن طوال العمر الا واحدا من هذه الاحلام العظيمة التي تظل مع المرء وكانها جزء منه ، وترافقه الى الفناء دون ان توجد حقا ، ومع ذلك فانها قادرة على ان تكون مثل حقيقة ما ، يفتقدها المرء من حين الى آخر ، ويشعر في لحظة أو أخرى علمسها وكانها فرت للتو من بين راحتيه .

(١) كان قاسم خليل قد ولد في طيرة دنس قرب يافا في الخامس من ايلول من عام ١٩٤٠ ، واصبح بعد سنة واحدة الابن الاوحد في العائلة بعد ان مات شقيقه الذي يكبره سنتين اثر اصابته بالحصبة ، ولم يتمكن قاسم من ان يدرس في مدرسة القرية الا حوالي سنتين ، وقد اصبح لاجئا في نيسان من عام ١٩٤٨ ، قبل ان يكمل العام الثامن من عمره ، وبعد ذلك سكن في احد بيوت الصفيح في مخيم عقبة جبر قرب اريحا مع ابويه ، وفي غضون ذلك كان يعمل اجيرا في كراج للسيارات في اريحا ، وتمكن — حين صار في العشرين — من ان يطلق على نفسه لقب ميكانيكي ، وكانت آماله تنحصر في ان يتمكن ذات يوم من ان يصبح ميكانيكيا طائرات ، او على الاقل مالكا لكراجه الخاص ، الا انه في الخامسة والعشرين تخلى عن هذه الطامح . كانت الاحداث الوطنية في تلك الفترة قد تخلخلت تحت الضربات المتلاحقة التي وجهتها السلطات الاردنية ، وهكذا سارع امله في الالتحاق بالحرب الذي كان احد رفقائه في الكراج يمتدحه امامه ، فقد صاحت اخبار ذلك الرفيق فجأة ، وهكذا فكر في ان ينشىء حربا فدائيا بنفسه ، والتحق بدورة تدريب للحرس الوطني للذلك الغرض، وحين شرع يرسم خططا صغيرة لبدء اتصالاته تفجرت حرب ١٩٦٧ ، وسمع وسط الفوضى ان الفدائيين يحشدون صفوفهم وراء النهر ، فترك والده ومخيم عقة جبر واتجه الى السلط في الثاني عشر من حزيران ١٩٦٧ .

(٢) في ليال من عام ١٩٧٠ نشرت الصحف ان دورية اسرائيلية اصطدمت مجموعة من الفدائيين حوبني البحر الميت ، وقد استمرت المعركة عدة ساعات استشهد فيها من اصل سبعة فدائيين كانوا هناك ستة ، وتمكن الناجي من الفرار ، وقد

وكانت نابلس ، ذلك الصباح ، منكفئة على نفسها وكانها ما تزال نائمة ، وقال ابو القاسم(٣) لنفسه ان المدن مثل الرجال ، تشعر بالحزن وتشعر بالوحدة . تفرح وتنام ، وتصبر عن نفسها بصورة فريدة تكاد لا تصدق ، وتتعاطف بغموض مع الغرباء او تركلهم .. بل ان الاحياء في المدينة مثل الاولاد في العائلة ؛ لكل منهم شخصيته ومتزلته ومزاجه ، ثمة شوارع محببة ، واخرى تتقاذف العابرين فيها بقظاظة ، وشوارع خيبته ، واخرى صريحة ، ولكن ابا القاسم كان الآن متشظيا بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كانها قذفت على راسه بحجر : بدن الارض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص ، يتضرج بزهر البرقوق ، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته ، ولا ريب ان قاسم بدأ كذلك بعد هنيهات من سقوطه ، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجذف شمس الصيف المتوقدة اوراق البرقوق الهشة . استدار ابو القاسم ، واخذ يتامل الجزء من جديد ذلك البقع الحمراء الممتدة امام عينيه فوق تلة صغيرة ، ودون ان يعرف بالضبط ما الذي يريده . خطا نحو التلة ، واخذ يجمع باقة من الزهر المخضب بالاحمرار القاني ، وقال لنفسه وهو ينحني : « منذ سنة وانا آتي

(٣) في الواقع انه يشعر الان بانه اكبر سنا مما هو حقا ، وبردد لنفسه ان الكوارث الثلاث التي نزلت به بدوه تحتها جبل : فقدان قريته وبروحه عام ١٩٤٨ ، وموت ام القاسم بالسل عام ١٩٥٣ ، واستشهاد قاسم قبل سنة .

(٤) ولدت سعاد وقاد في نابلس عام ١٩٤٥ ، وكان والدها موظفا صغيرا في دائرة النفوس التي كانت آنذاك تابعة لحكومة الانتداب ، وقد ظل موظفا في نفس المرتبة والدائرة خلال هبة النظام الاردني على الضفة الغربية ، وهكذا تمكن من ارسال ابنته سعاد الى جامعة دمشق عام ١٩٦٢ ، وقد درست لمدة سنة في كلية الاداب ، الا انها عادت والتحقت بقسم العلوم السياسية ، وهناك تعرفت على احد الشبان المتحمسين لحرب الصف، وما لبثت ان التحقا بالحرب ولكنها لم تستطع ان تكون عضوا معلم الولاء والانشاط ، وكانت هذه المشكلة بالذات هي التي فتحت عينيها على وضعة عميقة في دراسة المسائل التنظيمية في العمل السياسي ، وسانتها هذه الدراسة الى القاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي وعلى سبيه حركة القوميين العرب التي شهرت آنذاك انها حدة بالشرق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكسر مشدودة الى قانون صارم للعلاقات الداخلية ، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحدث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الاونة الى مرتبة السلطة ، وقد كان لسعاد آراء خاصة ، ولكنها بالغة التأثر، بالتيار الذي يطرأ على الاحزاب السياسية عموما ، وزادت البرامج الضفاضة والغامضة خصوصا ، حين تهيمن على دفة السلطة ، وهكذا فقد شهدت تلك الفترة من حياة سعاد وفاء حمولا سياسيا وحيرة بالغة الحدة ، ولكنها مع ذلك ابدت اهتماما خاصا بمجموعة من الشان ابدوا تصميمهم على احداث تغيير نحو اليسار في حركة القوميين العرب ، وكان سبب هذا الاهتمام بالدرجة الاولى دراسة تعدها سعاد عن مكانة الناصرية في المسيرة الوطنية العربية في تلك الفترة ، الا ان الارتباط مضى ابعد من ذلك ، فقد التحقت سعاد بالفراع الفلسطيني للحركة الذي كان قد بنى تنظيما فدائيا صغيرا اطلق عليه اسم « شباب الثار » ، وكانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كلفت بالقيام بالاتصال صغير في نابلس ابان عطلتها الصيفية ، والعمل على بناء خلية هناك ، الا ان الحرب فجأتها فقررت البقاء ، وكانت القدرات التي اظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي اوصلتها في فترة وجيزة الى مرتبة قيادية في نابلس .

(٥) كان طلال شابا قصير القامة لم يبلغ العشرين بعد ، ويبدو انه كان يتقن عبور

طلت اسماء جميع الشهداء محمولة حيث حدثت بمعرفة السلطات نحسب . الا ان حادثا صغيرا وقع عند ذاك يجدر تذكره : فقد عرضت الجثث على بعض الفدائيين الاسرى في محاولة للتعرف عليها ، وكانت اربع جثث مشوهة بحيث استحال التعرف على اي منها ، وايدى احد الاسرى شكه في ان تكون احدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم ، كان يعمل ميكانيكيا في اريحا ، وفي اليوم التالي احضرت الشرطة والد قاسم الذي اعترف بان ولده يعيش شرقي النهر ولكنه بعدما تفحص الجثة انكر ان تكون لولده ، وكان التشويه يمنع من الوصول الى قرار ، وحين وجه الفدائي الاسير الذي تعرف على الجثة بوالد قاسم نفى ان تكون شكوكه مبنية على معرفة حميمة بالشاب المجهول ، وما لبث ان تراجع عن شهادته ، وهكذا اخلي سبيل الرجل المجوز بعدما سجل توقيعه وبصماته على اوراق عديدة نص على انه سيتحمل بنفسه مسؤولية اي عمل يمكن لابنه قاسم الذي يعيش شرقي النهر ان يرتكبه ضد سلطات الاحتلال .

هذه السيدة الباب في اليوم التالي ، وطلبت منه ان يحدثها بالتفصيل عما حدث له حين استدعي الى المخفر الاسرائيلي قبل اسبوع لتعرض عليه جثة احد الفدائيين القتلى(٦) وحين كان يروي لها قصته اخذت عيناها السوداوان تنفحصان دمعا من تلقائهما ، وقالت له : « يا ابا القاسم ، ليس بوسع احد ان يملأ مكان احد ، وقد كان قاسم بطلا ، وعليك ان تكون فخورا به ، وقد فعلت شيئا حسنا حين انكرته لانك انقذت الكثيرين من رفاقه . لا تقل الحقيقة لاحد ، وخلني انا مكان قاسم » . ومنذ ذلك اليوم وهو يزورها في نابلس ويقيم في بيتها يوما او يومين ، ويأخذ الدنانير الخمسة ويعود الى اريحا(٧) ، وقد قال لها ذات يوم : « الختيار .. هل ما زال حيا ؟ » وحين قالت له « لا » ، اجابها : « هل تقبلينني انا ؟ » وقالت سعاد : « يا ابا القاسم ، انت والدنا كلنا ، لان الشهيد كان اخانا كلنا » وعندما سألها عما اذا كان يستطيع ان يفعل شيئا مفيدا ، واجابته سعاد بنبرتها الحاسمة : « ذات يوم ، ربما » .

وقف ابو القاسم مستشعرا الالم في خاصرته من طول الانحناء ، وكانت باقة الزهر الاحمر

↓ النهر ونقل الرسائل ، وفي الماضي كان يزور ابو القاسم مرة في الشهر ويعطيه ثلاثة دنانير ويقول له : « قاسم يسلم عليك » ، ولا يزيد كلمة واحدة . وفي آخر مرة رآه قال له ان سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره ، وانه لن يراه بعد . وكانت تلك السيدة هي سعاد ذاتها ، وبعد ذلك الوقت تولت سعاد اعماله ، وكانت تعطيه خمسة دنانير في كل مطلع شهر .

(٦) توجس خيفة صد الصباح ، وكان يشعر بثقل غامض يحتم على صدره ، وبعد الظهر جاء شرطيان واحداه الى المحجر ، واحد رجل ابرص ، يلمع كانه مدهون ، يسأله عن قاسم ، وبعد وهلة عرف في ضرارة نفسه ان ولده قد قتل ، ولكن الابرص لم يكن قد اشار الى ذلك بعد . « انعرفين كيف يتصارع الرجل مع دموعه ؟ مثلما يحاول فلاح ان يسد ثقوب الساقية بكفيه . وظل الابرص يسأل ولم اكن اعرف بماذا كنت اجيب » واخيرا ادخلوه الى غرفة مترعة برائحة الموت « وكان قاسم هناك ، ممددا على طاولة ، وقد نظرت اليه لحظة واحدة فحسب ، ثم اخذت انظر الى راحة يده ورأيت فيها ارادة رجل يطل ظل ممسكا بسلاحه حتى اللحظة الاخيرة ، ولم تفرد اصابعه الا بالقوة ، وبعد ان مات « وسألوه ان كان يعرفه ، ففي ذلك بشدة « ان قاسم شاب اطول قامة واشد سمرة ، ثم انه سافر الى الكويت وهو يعمل في كراج للسيارات هناك » وشعر بالعار لانه يكذب، ولم يكن يعرف لماذا كان كاذبا الى هذا الحد . « لقد انكرته ، ولكنه سيغفر لي ، فانا رجل عجوز لا احمل السجن ولا الضرب ، واريد ان اموت هنا ، وليس لشرقي النهر . انت تفهمين ذلك ايتها السيد .. اليس كذلك ؟ »

(٧) كانت وكالة الغوث قد قطعت اعانته ، وسحبت منه الدفتر الاحمر الذي كان يخوله تناول المؤن ، وذلك لان تقارير شعبة التحري في الوكالة قد اثبتت بان ابنته يحصل مدحولا شهريا يزيد عن عشرة دنانير .

نيسان

قد اصبحت كبيرة وبدت في بدء الخشنة شعلة من اللهب ، ووراء التلة كان بيت سعاد بشبابيكه الصغيرة في الطابق الثاني ، وقال لنفسه : « ربما كانت تنظر الي الان » ، وقرر ان يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين زارته لاول مرة(٨) في اريحا ، ومن ثم انطلق نازلا التلة الى الطريق ، ومضى نحو منزل سعاد .

آخر شيء يذكره ابو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل الى بيت سعاد ، الا ان الباقة الحمراء التي كانت تتوقد في كفه ظلت اكثر رسوخا في ذاكرته ، منذ هذه اللحظة ، اكثر من اي شيء آخر : لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون ان يراوده اي شك بانه سيعود فينزلها كما صعدها ، وبعوصالي عالمه القديم الذي يبدو له الان انه فادره تماما . ان للرجال قدارهم المكتوبة منذ الازل ، والتي هي مثل اسمائهم ، تلتصق بهم في لحظة لا يدركون كيف جاءت . لقد قرع الباب متوقعا وجه سعاد بملامحه القاسية ، ولكن الجميلة ، الا انه فوجيء بفتيحة قوية تمض كتفه ، وتجذبه بعنف الى الداخل ، ثم سمع اصطفاق الباب وراءه مثل انفجار .

وحين استرد توازنه على المقعد الذي قذف اليه ، الطت عليه ثلاثة رشيشات ، ووراءها وقف جنديان وضابط . وفتح ابو القاسم فمه دون ان ينوي قول شيء معين ، الا ان الضابط نهره : « هش » .

واخذ احد الجنديين يفتشه ، باحثا في جيوب قنبازه عن شيء ما ، وعندما تنبه ابو القاسم الى وجود ثلاثة اشخاص آخرين في الغرفة ، واقفين ووجوههم الى الجدار ، وفي الزاوية كان ثمة طفل في العاشرة يبكي بما يشبه الهمس ، ولم تكن سعاد هناك ، وبدت صورة والدها المعلقة على الجدار ، بشاربيه الغليظين(٩) اكثر غرابة مما كانت في اي وقت مضى ، وكان ما يزال مشوشا ، غير قادر على اعادة ترتيب ما حدث ، حين قبضت يد الجندي بشدة على زنده ورفع يده عنف الى فوق : عندها فقط تذكر باقة الزهر الاحمر مرة اخرى ، وتعجب لهنيهة كيف لم تسقط من يده ، ولم تتمزق ، وسط ذلك العراك الاحمق الذي يجري دون هدف معين . ودفعه الجندي الى الحائط ، وساعده الجندي الاخر في صلبه امام الجدار بذراعيه المفتوحتين الى اقصى ما يستطيع ، وبهدوء ارغمه الضابط على فتح كفه ببطء ، وتناول الباقة بحذر مبالغ به ، وسجها بما يشبه الاحتفال المنظم على الطاولة الرخامية(١٠) ، ووقف يتاملها لحظة ، ثم استدار فجأة وساله بعنف :

(٨) دخلت البيت ، وانتزعت الزهرة الحمراء من شرحها وهي تقول له : « البرقوق ورد الفقراء يا ابا القاسم » ، وبعد هنيهة قالت له : « اهل القتلى كانوا يقولون : هذه دماء الشهداء تظل علينا » .

(٩) حين قال لسعاد مرة ان تشاربي والدها في الصورة يدوان مخيفين ، ضحكت برهة ، ثم انصرفت الى التفكير ، واخيرا سألته : « ماذا يحدث للشوارب ، يا ابا القاسم ، حين يأكل الدود جسد الرجل الميت ؟ » ومنذ ذلك الحين وهو غير فادر على صرف هذا السؤال عن ذهنه كلما رأى صورة الاب بشاربيه الكبيرين .

(١٠) مرة قالت له سعاد وهي تشير الى الطاولة، سعاد الان اكثر من اي وقت مضى .. اترى انتهى الصمت ؟ اصار بوسعه ان يقول لهم بان ذلك الفتى المفرج ، المعد على الطاولة في مخفر اريحا ، هو ابنه قاسم ؟ ام ان ذلك كله قد اضحى الان سرا اكثر حاجة للكتمان مما كان في اي وقت مضى ؟ لقد احس فجاة بانه مؤتمن على شيء خطير لا يعرف ما هو بالضبط ، وربما كانت حياة سعاد نفسها ، بل حياة هؤلاء الشبان الثلاثة الواقفين ووجوههم الى الحائط ، بل ربما حياة ذلك الطفل الصغير ايضا ، معلقه في كلمة واحدة قد يلفظها في اية لحظة دون ان يدري ، ايمكن لذلك كله ان يكون حقيقيا ؟

— انها باقة زهر يا سيدي ، وهي لا تعني شيئا خطيرا على الاطلاق . قلت لنفسي وانا امر من هنا : هذا بيت صديقي القديم ، وابنته وحيدة فيه ، ولا باس لو حملت لها باقة زهر ..

— لا فائدة من الكذب ايها الشيخ الخبيث . سوف ترى بعد برهة ان الصدق هو افصر الطرق الى السلامة .. اتقول الحقيقة الان ام ماذا ؟

— زهر يا سيدي ، زهر .

— هش ..

وفي الخارج جاء الصوت خافتا في البدء ، ثم اخذ يعلو شيئا فشيئا : كانت ثمة خطوات تصعد الدرج ، وشعر ابو القاسم بان الامر اخذ في التعقد ، وان الغث المنصوب في الغرفة انما يتعلق بقضية اكثر خطرا مما نعتقد ، وبعد برهة دفت يد ما خشب الباب ، وفي اللحظة التالية انفض الجنديان ، وقد فتح الضابط الباب فجاة ، على الرجل الواقف هناك وقذفاه الى الداخل .

وامتلات الغرفة فجاة بجلبة غريبة ، واخذ الطفل الذي كان قد اركن الى الصمت قبل برهة يبكي من جديد ، ينشيج اكثر مرارة ، فيما مضى الجنديان يفتشان الرجل بعنف وشراسة ثم ساقاه الى الحائط وارغماه على رفع ذراعيه الى الاعلى ووجهه نحو الجدار ، وعاد الجنديان فوضعا الاوراق التي انتزعاها من جيوبه على الطاولة ، ووقفا وراء الضابط الذي بصوت يملؤه رنين الانتصار :

— صيد ثمين اليوم ، هذه الملعونة سعاد كانت تعيش تحت بصرنا ونحن لا نعرف ، وها هم افراد العصابة يتقاطرون الى بيتها واحدا اثر الاخر ، انت ! ما اسمك ؟

واجاب الرجل الجديد ووجهه ما يزال الى الحائط :

انني زياد حسين ، والد الطفل الجالس هنا ، يا سيدي ، جئت افتش عنه بعد ان تاخر ..

قال الضابط :

— اذن انت الذي ارسلته ..

— نعم يا سيدي ، خبزنا صباح اليوم صدرا من الكنافة ، وكمادتنا في الحي بعثنا مع وليد صحنا لسعاد ، وعندما تاخر وليد جئت ابحث عنه ..

ولاول مرة منذ ان دخل الغرفة شهد ابو القاسم صحن الكنافة على الطاولة ، وكانت القشرة الشقراء تلمع من فرط ما اشبعت فطرا ، وتساءل بينه وبين نفسه : « اتراها قصة حقيقية ؟ ايمكن ان يكون زياد هذا والد او شقيق فتى ما ، استشهد ذات يوم ، وهو باتي كل شهر لسعاد كي ياخذ خمسة دنانير ؟ »

الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد نال اوسمة عدة لخدماته في المخابرات .

— اسال هؤلاء كلهم .. ايعني الزهر غير الود والاحترام ؟

— من الذي بعث بالباقة ؟

— انا الذي قطفتها ..

— من الذي طلب منك ان تقطفها ؟

— لا احد ..

— ما هي علاقتك بسعاد اذن ؟ هل انت عشيقها ؟

واخذ الجندي(١١) الواقف قرب الطاولة يضحك بصوت مكتوم ، وقال شيئا ما لم يسمعه احد بوضوح ، وعاد فضحك من جديد لفترة قصيرة وصمت حين رمقه الضابط(١٢) بشدة ..

اما ابو القاسم فقد شعر بانه قد اصطيد ، وبان اكفا جبارة تطبق على صدره ، وانه بحاجة الى

— ما هذا ؟

— هذا ؟

— اجل ، ما هذا ؟

— كما ترى ـ زهر يا سيدي . برقوق نيسان.

— هه !

وابتسم ابتسامة خبيثة ونظر من طرف عينيه الى الجنديين ، وعاد يسال وكان فترة المزاح التي اتاحها قد انتهت :

— ما هذا ؟

— ورد ، زهر ، برقوق ، يا سيدي .

— انني اسالك للمرة الاخيرة : ما هذا ؟

ولم يستطع ابو القاسم ان يعرف ان كان الضابط يحاول ان يجعل منه اضحوكة ام انه جاد حقا . واكتسحته موجة من حيرة حزينة ، واخذ ينظر حواليه محاولا الاستنجاد بشيء ما . كان الطفل قد كف عن البكاء ، واخذ ينظر بفضول الى باقة الزهر الاحمر فيما كان وجهه يكتسي بملامح تشبه الدهشة ، وتذكر سعاد فيما كانت الافكار تعود الى التراكب في راسه ، وتساءل ان كان يتعين عليه الان مرة اخرى ان يدخل الى الغرفة الثانية وينظر اليها ممددة على السرير وراحة يدها مفرودة الاصابع بالقوة وملطخة بالدم .

— ماذا يمكن ان يكون هذا يا سيدي غير زهر البرقوق الذي تفتح هذا الصباح على قارعة الطريق ؟

— انا الذي اسألك .

وهز ابو القاسم كتفيه وسكت . لقد ادرك ان الكلام لم يعد يفيد احدا ، وان ثمة شيئا لا يفهمه يحدث بغموض ، وامام مثل هذه الحيرة لا يسعه في الواقع الا ان يصمت وينتظر ، الا ان الضابط نهره :

— تهز كتفيك وكانك بريء ! اتريد ان اساعدك قليلا ؟ من الذي اعطاك هذه الباقة ولماذا ؟

— قطفتها عن الطريق ، وكنت ...

— انت عشيقتها ؟

وضحك الجندي ، فيما تساءل ابو القاسم :

— استغفر الله ، مشيق من ؟

— عشيق المغربية التي تسكن هنا ؟..

— انا رجل عجوز يا سيدي ، ايمكن ان يحدث هذا ؟

— اذن لماذا احضرت الزهر ؟ من الذي ارسلك ؟

— جئت ...

الا ان صورة قاسم جاءت عاصفة مثل الانظام ، ووراءها جاءت صورة سعاد ، ولم يعد يعرف ماذا يتعين عليه ان يقول ، فيما اخذ ينظر حواليه وهو شديد الارتباك ، محتارا تحت النظرات التي كان يسلطها الضابط عليه ، ثم سال بصوت ادهشه كيف انطلت من صدره مليئا بالاستجداء :

— ماذا حدث لسعاد يا سيدي ؟ هل هي بخير ؟

— كفى تمثيلا ايها الشاب ، وقل لي ما معنى هذا ؟

ونظر ابو القاسم الى حيث اشار الضابط ، كانت باقة الزهر الاحمر ملقاة فوق الطاولة ، وبدت اقل جمالا مما كانت ، واجاب :

— ماذا يمكن للزهر ان يعني يا سيدي غير الود ؟

— هه !

وكانت منطقة بشرشف سكري اللون مشغولة حواشيه بالصنارة : « انظر ماذا كانت تفعل امي طوال عمرها ، تشتغل بالصنارة وتغني عينيها كي تبدو طاولة ابي طاولة محترمة امام ضيوفه ! »

(١١) كان يهوديا معرب اسمه ابراهيم ، ولد في الدار البيضاء عام ١٩٤٥ ، وكان ابوه يمتلك دكانا صغيرا في حي شعبي لبيع الاقمشة ونصل الالسنة الحاهرة ، اما شقيقه الاكبر فقد كان عاملا في مصنع للسبح يقع على بعد بسير من المدينة . كان الوالدان نقيين ، الا ان الاخ الاكبر ، يعقوب ، التحق بتنظيمات الشمبلة واحد يظهر ميولا شيوعية ، ولا شك ان ذلك سبب ارتباكا كبيرا في المنزل ، فقد كان الاب يربط شدة بين الشيوعية وبين العلاقات السوفياتية المصرية وبالنتيجة بين الشيوعية وبين الحرب الاسرائيلية العربية. وفي احيان كثيرة كان الحدل العنيف بين الاخوين يجعل يعقوب يوشك ان ينهي الى انفصام في العائلة التي لم تعتد على هذا النوع من التناقض ، وقد وصلت الامور في نوفمبر الى الذروة حين الفى الوليس الفرنسي الخاص على يعقوب في الاضطرابات العمالية التي وقعت في عام ١٩٦٣ ، وداقت العائلة كلها من نتائج هذا الحادث ، ونعرضت مثل عوائل العمال جميعا في تلك الفترة ، الى تشديد مضايقة قسم من قبل السلطات التي واجهت النشاط النضالي المتزايد لانحاد الشمبلة المغربي وللتحالف الذي اسسه آنذاك بن الاتحاد هذا وبين الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبين عدة احزاب سياسية تقدمية ، بالمزيد من العمل التنظيمي . وفي تلك الفترة وجد الاب نفسه في اعمال اجراء مع رجل فرنسي فرصة للخلاص من كل تلك الشدة ، وقد انتظر على مضض خروج يعقوب من السجن فرحل مع العائلة على متن زورق صغير ، مع عدد آخر من الاشخاص الى الساحل الاسباني ، ومن هناك بدات الرحلة الاكثر الى اسرائيل الا ان يعقوب فر مبكرا ان يبقى في فرنسا . فلم تكن خطط الوكالة اليهودية ودوائر الهجرة لتروقه ، وهكذا مضى الى الاحياء الباريسية التي يتواجد فيها العمال المغاربة حيث وجد الكثيرين من رفاقه القدامى . اما ابراهيم ، الذي صار منذ تلك اللحظة ابراهام ، فقد وصل في اواخر ١٩٦٥ مع عائلته الى ميناء حيفا ، وكان الاب محطوطا اذ اسكن في ضاحية قريبة من تل ابيب ، وقد تمكن في اقل من عام ان يشارك رجلا آخر في ملكية دكان صغيرة لبيع الاقمشة والملابس الجاهزة . اما ابراهام فقد اصبح عاملا في معمل للنسيج يقع على غير بعيد من حيث يسكن ، الا انه ، منذ حرب ١٩٦٧ ، فضل ان يظل جنديا في الجيش .

(١٢) برتبة كابتن ، وكان جنديا محترفا مع